# الظاهرة القرآنية في فكر مالك ابن نبي

# The Qur'anic Phenomenon in the Thought of Malik ibn Nabi


إعداد

**يحيى ابن عبد الوهاب**

**Yahya Abd al-Wahhab**

**باحث في سلك الدكتوراه. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل - جامعة عبد المالك السعدي**



***Doi: 10.21608/jnal.2025.420725***

**استلام البحث** ٢٠٢٥/١/٩

**قبول البحث** ٢٠٢٥ / ١ /٣١

عبد الوهاب، يحيى ابن (٢٠٢٥). الظاهرة القرآنية في فكر مالك ابن نبي. ***مجلة الناطقين بغير اللغة العربية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٨(٢٥)، ١ – ١٢.

***http://jnal.journals.ekb.eg***

## الظاهرة القرآنية في فكر مالك ابن نبي

**المستخلص:**

تجاوز مالك ابن نبي في كتابه "الظاهرة القرآنية" التفسيرات التقليدية المدافعة عن القرآن الكريم، حيث أبان الرجل في كتابه عن طرق جديدة أسهمت في إظهار جوانب خفية لمظاهر أصالة كل من القرآن الكريم وظاهرة النبوة، وقد تأتى لابن نبي ذلك عبر عقده لدراسة قائمة على تفسير القرآن الكريم من خلال استحضاره لعلم الأديان المقارن، فقام في هذا السياق باستحضار تجربتين نبويتين متباعدتين زمانيا ومكانيا وهما تجربة النبي "إرميا" والنبي "محمد ﷺ" لإثبات أصالة ظاهرة النبوة، ومن ثم انتقل لإثبات صحة سند نصوص القرآن الكريم وعدم تأثرها بالروايات الواردة في نصوص العهد القديم أو ببيئة العصر الجاهلي من خلال عقد مقارنة بين الرواية التوراتية والرواية القرآنية لقصة النبي يوسف، وأيضا القيام بدراسة نفسية لحالة الرسول محمد ص قبل البعثة وبعدها، حتي يتسنى له تثبيت أصالة ظاهرة النبوة واستقلالها عن باقي الظواهر. وقد استطاع ابن نبي من خلال دراسته هذه من الرد على دراسات استشراقية عديدة كانت بمجملها تتبنى فرضيات تطعن في أصالة نصوص القرآن الكريم وظاهرة النبوة، وقد توصلنا في ورقتنا هذه إلى أن الظاهرة الدينية عموما تمتلك إجابات عديدة لعدة ظواهر عجز العقل حتى الآن في الإجابة عليها، كما أن الظاهرة القرآنية هي ظاهرة أصيلة شكلا ومضمونا فنصوصها تتضمن جوانب تاريخية وروحية تعضد بعضها البعض وعلى غرار الظاهرة القرآنية نجد الظاهرة النبوية لها أيضا استقلالية تامة عن باقي الظواهر الإنسانية.

**الكلمات المفتاحية:** الظاهرة القرآنية، الظاهرة النبوية، العهد القديم، العصر الجاهلي، الإستشراق.

**Abstract :**

In his book The Qur'anic Phenomenon, Malek Bennabi goes beyond the traditional defenses of the Qur'an, revealing new approaches that helped uncover hidden aspects of the originality of both the Qur'an and the phenomenon of prophethood. Bennabi achieved this through a study based on interpreting the Qur'an by incorporating comparative religion. In this context, he examined two prophetic experiences separated by time and space: those of the prophet Jeremiah and the prophet Muhammad, to demonstrate the authenticity of the prophetic phenomenon. He then moved on to prove the authenticity of the Qur'anic texts and their independence from the narratives found



ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

in the Old Testament or the pre-Islamic environment. He did this by comparing the biblical and Qur'anic accounts of the story of Prophet Joseph. Bennabi also conducted a psychological study of the state of the Prophet Muhammad, both before and after the revelation, to affirm the originality of the prophetic phenomenon and its independence from other human phenomena. Through his study, Ben nabi was able to refute many Orientalist studies that generally adopted hypotheses questioning the authenticity of the Qur'anic texts and the phenomenon of prophet hood. Our paper concludes that religious phenomena in general possess numerous answers to various questions that the human intellect has yet to fully resolve. Furthermore, the Qur'anic phenomenon is inherently original, both in form and content, as its texts contain historical and spiritual elements that reinforce one another. Similarly, the prophetic phenomenon also maintains complete independence from other human phenomena.

**Key words :**The Qur'anic Phenomenon, The Prophetic Phenomenon, The Old Testament, The Pre-Islamic Era, Orientalism.

**مقدمة**

تعددت الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم وخاض علماء الإسلام غمار دراسات مطولة لإثبات أصالة القرآن الكريم وخلوه من أية تأثيرات بشرية سواء أكانت من طرف الرسول محمد ﷺ أو من بيئته، فالدراسات الاستشراقية وبعض الدراسات الحديثة عملت جاهدة لتثبيت فرضيتها القائلة بوجود تأثير بشري في نصوص القرآن الكريم، وقد ركزت هذه الدراسات جهودها بشكل خاص على ثلاثة نقاط أساسية وهي:

- وجود تأثير من قبل أهل الكتاب وبيئة العصر الجاهلي في وضع القرآن الكريم.
- تدخل ذاتية الرسول محمد ﷺ في صياغة نصوص القرآن الكريم.
- عدم احترام خصوصية القرآن فيما يرتبط بصحة نصوصه.

ورغم خطورة هذه الفرضيات على بنية القرآن الكريم وإعجازه، إلا أن علماء الإسلام لم ينبروا بما فيه الكفاية للدفاع عن أصالة هذا الكتاب المقدس، وظلوا معتكفين فقط على التفسيرات التقليدية للقرآن وعدم التوجه صوب علوم ودراسات عملية



ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

جديدة، تفسح المجال لدحض هذه الدراسات الغربية وتقوم أيضا بتفسير القرآن الكريم وفق منهج جديد يوضح أصالة الظاهرة القرآنية من زوايا مختلفة.

من هنا قام مالك ابن نبي بدراسة القرآن الكريم وتفسير ظاهرته عبر منهج جديد قائم على الجمع بين علم الأديان المقارن والتحليل النفسي لشخصية الرسول محمد ﷺ، وذلك في كتبه الظاهرة القرآنية، وهي دراسة نادرة في هذا المجال. حيث قام الرجل بتفسير القرآن الكريم بعيدا عن التفسير التقليدي المتعارف عليه في علوم القرآن، فقام بتفسيره وبيان أصالته عبر عقد دراسة مقارنة انطلاقا من قصة النبي يوسف عليه السلام، مرورا بتفسير ظاهرة النبوة انطلاقا من تراث العهد القديم ونصوص القرآن الكريم، وانتهاء بعقد مقارنة بين الظاهرة القرآنية والبيئة العربية في العصر الجاهلي من جهة، والظاهرة القرآنية والظاهرة المحمدية من جهة أخرى، لبيان خصوصية كلتا الظاهرتين وأصالتهما عن باقي الظواهر المنتشرة في محيطهما الاجتماعي والمعرفي. ولمناقشة هذا كله، ارتأيت الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، حيث يمكننا هذا المنهج من تحليل النصوص والأفكار ودراسة الإشكالات المختلفة ووصفها، للوصول إلى الحقيقة العلمية.

كما ارتأينا أن نتناول هذه الاشكاليات بالشرح والتحليل في خمسة محاور جاءت على الشكل التالي:

المحور الأول: المذهب المادي والمذهب الغيبي.

المحور الثاني: إثبات ظاهرة النبوة من خلال علم الأديان المقارن.

المحور الثالث: الظاهرة القرآنية وبيئة العرب.

المحور الرابع: أصالة الظاهرة القرآنية "دراسة مقارنة بين الرواية التوراتية ورواية القرآن الكريم من خلال قصة يوسف".

المحور الخامس: الظاهرة القرآنية والظاهرة المحمدية.

**١. المذهب المادي والمذهب الغيبي**

لقد استحضر مالك ابن نبي جملة من المسائل لمعالجة هذا الموضوع، فقام أولا بحل إشكالية التضاد وعدم الجمع والتوفيق بين المذهب المادي والمذهب الغيبي، وأكد على سهولة الجمع بين المذهبين من خلال استحضار أمثلة ملموسة تفسر بعض الظواهر الطبيعية التي يقف خلفها الله سبحانه تعالى وليست الصدفة على مذهب الاتجاه المادي، إذ يرى ابن نبي أن كل ظاهرة غير مفسرة يعجز العقل على برهنتها يكون الله عز وجل هو الموجد الأول لها (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٨٠). وقد عبر ابن نبي عن هذا الطرح بالقول: (من الضروري هنا أن نفرض مبدأً متميزاً عن المادة، فالله خالق ومدبر للكون، وسبب أول ينبثق عنه كل موجود، وهذا هو مبدأ المذهب الجديد وسيتولى هذا المبدأ بيان أصل المادة، وقد وجدناه غامضاً موغلاً في الإبهام في المذهب السابق: فهي مخلوقة بواسطة حتمية مستقلة عن جميع خواصها وهذه الحتمية


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

الغيبية - الميتافيزيقية تسعفنا حين تعجز القوانين الطبيعية عن إعطاء تفسير واضح للظواهر. وبذلك ينتج عنها مذهب كامل متسق متجانس لا نقص فيه ولا تعارض، مما لزم المذهب المادي وفي الوقت الذي يعبر فيه المذهب الغيبي عن المطالب الفلسفية للعقل، الذي يرمي إلى ربط الأشياء والظواهر ربطاً منطقياً في تأليف متسق، نجده ينصب علاوة على ذلك جسراً يتجاوز حدود المادة إلى مثال أعلى للكمال الروحي، إلى الهدف الأساسي الذي لم تكف الحضارة عن الاتجاه نحوه، فخلق المادة هنا ينتج من الأمر القاهر الإرادة عليا، تقول لكل شيء حسب كلمة سفر التكوين: (كن) وتطور هذه المادة سيكون طبقاً لأوامر إرادة، توزع التوازن والاتساق اللذين قد يلاحظ علم البشر قوانينها الثابتة ولكن بعض مراحل هذا التطور ستخفى على الملاحظات المألوفة لرجال العلم ، دون أن ينطوي المذهب من أجل هذا على نقص ما، ففي هذه الحالات الاستثنائية نستعين بالحتمية الغيبية التي لا تعارض بينها وبين طبيعة المبدأ) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٨٩).

ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا أن ابن نبي قد أسهب في معالجة هذه القضية بشكل مفصل نظرا لخطورة هذا الإشكال في عصرنا وتجدد استعماله وفتح أبواب النقاش فيه بشكل مضطرد، ولهذا السبب أخذ هذا الموضوع حيزا مهما في تفكير الرجل، وقد انطلق كما رأينا في مناقشة هذه القضية الشائكة وفق مقدمات علمية تمزج بين البرهان العلمي والدليل العقلي معززة بالنصوص الواردة في الكتب السماوية، هدفه في ذلك، تقديم حل شامل لهذه المسألة وفق نمط تفكير علمي حديث قائم على استعمال الأدلة العلمية حتى يتمكن من دحض نظريات المدارس الغربية والمدارس ذات الاتجاه الإلحادي التي تتناسى شقا هاما في هذه المسألة وهو الشق الديني وخصوصياته، وتتخذ من هذا الموضوع منطلقا لنشر توجهاتها داخل المجتمعات الإسلامية وبشكل خاص فئة الشباب.

**٢. إثبات ظاهرة النبوة من خلال علم الأديان المقارن**

عزم ابن نبي على إثبات نبوة الأنبياء ودحض الدراسات الإستشراقية والغربية عموما باتخاذ منهج فريد من نوعه حيث قام بمقارنة حالة النبي إرميا بحالة الرسول محمد ﷺ وقد صرح ابن مالك حينما استحضر السياقات التالية:

(ويتميز النبي الموحى إليه عن منافسه المحترف، بمقاومته العنيفة ضد الألوهية القومية، التي صارت لب العقيدة الشعبية، فجميع الاتجاهات الخلقية للنبي الموحى إليه قائمة على أساس الفكرة المتسلطة الملازمة: فكرة إله واحد عام، يريد النبي أن يثبت فرائضه الخاصة في شعائر قومه) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٩٣).

ليستخلص في النهاية نتائج متطابقة لكلا الحالتين رغم التباعد الكبير على الصعيد الزماني والمكاني، فأكد ابن نبي على خلاصات جد هامة في دراسته لهذه الجزئية، تتلخص في الآتي:


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

- وجود قوة قاهرة.
- الإخبار الصادق عن الأمور المستقبلية وحكم فذ عليها.
- مظاهر السلوك النبوي المشترك.
- ضرورة وجود نبي مرسل عند وجود تدهور خلقي وديني ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية لشعب ما (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٩٩).

كانت حالة بني إسرائيل اتخاذ آلهة قومية، طابعها العام التشبيه والتمثيل بألوهية التوحيد وانتشار البدع وكذا انتشار العرافين والسحرة وعدم التمييز بينهم وبين الأنبياء الحقيقيين، (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٩٣). وهذه الأوضاع كانت مشابهة نوعا ما لما يقع في شبه الجزيرة العربية قبل بعثة النبي محمد ﷺ، وقد أسهب ابن نبي في هذه الجزئية حينما توصل للإستنتاجات التالية: (لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي، وفي محتويات رسالته المتواترة المنزلة، فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى، ولنا أن نلاحظ أولاً وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً، ليكون غريباً نادراً، بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ، منذ إبراهيم إلى محمد واستمرار ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، يعد شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها؛ بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل، ومع طبيعة المبدأ) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٨٧).

ليصل في نهاية المطاف إلى انتقاد ابن نبي للمدارس الغربية بشكل عام حينما أكد على عدة نقاط أذكر منها قوله التالي: (إن الدراسة الموجزة، لا تؤدي إلى فهم الظاهرة الدينية المعقدة، لأن لها مظاهر متنوعة ومتعددة في مختلف البيئات الإنسانية، ولقد قامت نظريات غريبة عن طبيعة هذه الظاهرة وتاريخها. فالمؤلفون المعاصرون يحاولون شرحها في ضوء تفسير تاريخي مجرد، تبعاً لمنهج "ديكارت" الذي يرجع كل شيء إلى معيار أرضي. كذلك قرر "شوريه" أن الفكرة الدينية ظلت سراً تحفظه صدور بعض أولئك الواصلين، يكشفه بعضهم لبعض، من جيل إلى جيل، بواسطة انكشاف باطني، تضل ذكراه مع ما يحتوي من سرية في أعماق التاريخ. هذه الفكرة المبسطة تزيد في تعقيد موضوع سبق أن قررنا أنه معقد، وهم يدعون مع ذلك أنهم إنما أرادوا توضيح أركانه بهذا الفرض الخاطئ المضحك: وهو الفرض الذي يزعم حدوث انكشاف دوري للسر الديني، بواسطة جمعية سرية غامضة يرأسها بعض اللامات في أحد جبال التبت البعيدة) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٨٥).

وبعد هذه المقدمات، توصل ابن نبي إلى استنتاجات دقيقة تقول بعدم تقبل الرسل في البداية تحمل تبعات الرسالة، وبوجود قوة خفية تدفعه على استشراف المستقبل بشكل دقيق جدا. وقد فسر ذلك بالقول: (فمن الصعب أن نفسر ظاهرة - هذا وصفها - تفسيراً ذاتياً شخصياً. فهناك لغز فسره النقد - المولع بإرجاع كل شيء إلى أفكار ديكارت


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

مهما كلف الأمر - تفسيراً عجيباً هو: أن النبي شخص مزدوج، مزود بذاتين تسأل إحداهما الأخرى، وتتأثر بانكشافاتها ولكنهم لم يهتموا بتحديد موضع هذه الذات الثانية في الفرد، الذي يعده على النفس التحليلي منقسماً إلى ميدانين: اللاشعور، والشعور، فهل الذات الثانية موضعها الشعور أو اللاشعور؟ أو كلا المجالين في وقت واحد لم يقل أحد شيئاً كهذا. وهل هذا يستدعي منا فرضاً آخر؟ فإذا كانت الذات الإنسانية الواحدة لا تقدم تفسيراً كافياً للظاهرة، فلن يتحقق هذا بمزاوجة هذا الكيان النفسي أو تضعيفه، لكي يقدم للظاهرة تفسير أفضل. وحينئذ يبدو أنه لم يعد هناك تفسير آخر ممكن إلا أن نضع الظاهرة خارج الذات، ومستقلة عنها استقلال المغناطيس عن الإبرة. ومما يدعم هذا الرأي: شهادة الأنبياء على أنفسهم، تلك الشهادة الوحيدة، والمباشرة على الظاهرة، فقد وضعوها بالإجماع خارج كيانهم الشخصي. فإذا صلح هذا الرأي لأن يكون فرضاً، فإن هذا الفرض لن يكون أقل صحة من افتراض النقد الحديث) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٩٣). ويضيف في ذات المضمار: (فمن الخطأ فيما يبدو لنا أن يرى النقد الحديث في هذا العصر مرحلة من البحث والقلق، أي نوعاً من إرادة التكيف وتخلق الفكرة عند النبي، بل على العكس تماماً تبرهن وثائق العصر على أن المشكلة الغيبية لم تساور ضميره، فقد كان عنده حلها، وجزء من هذا الحل إلهامي وشخصي. وجزء آخر موروث لأن إيمانه بإله واحد إنما يأتيه من الجد البعيد "إسماعيل") (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١٢٢).

لقد كان غرض ابن نبي من إيراد هذه الأمثلة والوقائع المثبتة تاريخيا إيضاح أمر هام لطالما شكل محل خلاف عميق بين الدراسات الاستشراقية التي تسللت للبيئة الاسلامية والدراسات الاسلامية، وقد عالج ابن نبي ذاك كله عبر تسلسل علمي، حيث استهل دراسته لهذه المسألة بإيراد خصوصية القرآن الكريم عن باقي الكتب السماوية، منتقدا شمولية الدراسات الغربية "مدرسة كانت ومدرسة شوريه على سبيل المثال" في هذه القضية، حيث قام هذه الدراسات بوضع القرآن الكريم مع باقي الكتب السماوية متناسية خصوصيات كل كتاب على حدة وظروف تواجدها من حيث سندها والظروف التي مرت بها، إلى جانب عدم تمييزها بين مدعي النبوة والنبي الحقيقي، فلكل منهما أوصاف خاصة به، ليتمكن ابن نبي بعدها للانتقال والحديث بأريحية عن أوجه التشابه بين ظروف بعثة الرسول محمد ﷺ والنبي إرميا لأقوامهم فوجد تشابها بين النبيين من حيث طبيعة الإله "اتخاذ إله قومي والدعوة إلى توحيد الله" وتشابها أيضا في الأعراف الاجتماعية، ووفق هذه الرؤية التي قدمها أكد ابن نبي في دراسته على حتمية تواجد "الظاهرة النبوية" عند توفر الظروف الموجبة لذلك.

وإلى جانب هذه الرؤية، قام ابن نبي بمعالجة إشكالية هامة شكلت بدورها مدار جدل عميق، وهو إشكال مرتبط بإثبات خلو الشعر الجاهلي من تعاليم ومؤثرات أتباع الديانات السماوية السابقة للإسلام، وقد مضى ابن نبي في سبيل تأكيد خلو القرآن


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

الكريم من تأثيرات الشعر الجاهلي وبالتّبع استقلال ذاتية الرسول والظاهرة النبوية عموما عن الظاهرة القرآنية، إلى تقديم معطيات علمية عديدة مفادها أن الظاهرة النبوية هي ظاهرة مستقلة وبعيدة عن التأثير في القرآن الكريم.

**٣. الظاهرة القرآنية وبيئة العرب**

انبرى مالك ابن نبي في هذه النقطة لإثبات عدم وجود تراث للكتب المقدسة في بيئة تواجد النبي محمد ﷺ، عماده في ذلك انعدام تراث مادي أو شفوي عربي يؤكد تسرب العقائد اليهودية والمسيحية في البيئة العربية التي اشتهرت كثيرا بتراثها الشفوي المتطرق لأبسط أعمال العرب اليومية، (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٢٥٩). وبيئة العرب الصحراوية كما هو معلوم هي بيئة أمية، يتخللها تواجد بعض الأحناف وهم نساك متعبدون لا علاقة لهم بطقوس أهل الكتاب، مؤكدا أن النظام الحنفي عبارة عن نظام فطري خلقي صافي لا علاقة له بالأخلاق المسيحية أو الشريعة الموسوية، (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١١٧). ومن هذا النظام سطع نجم النبي محمد ﷺ يقول ابن نبي في هذا الصدد: (يبدو لنا أن هذا التعميم منسوب إلى المصدر العبري خاصة، لأن النقد الحديث يستقي منه أسانيده عن الموضوع هذه الأسانيد هي في الواقع المخطوطات الإسرائيلية في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وهي التي كانت مصدراً للمعلومات الرئيسية عن الحركة النبوية على حين أن هذه الحقبة من التاريخ الإسرائيلي لم تكن فترة ارتقاء روحي، بل هي الأخرى فترة تدهور خلقي وديني، ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، وهذا التدهور هو على وجه التحديد موضوع دعوة الأنبياء (...) وتفسير ذلك من وجهة نظر التاريخ هو أنه حدث في ذلك العصر أمران هامان هما: هبوط درجة "رب العالمين" إلى مجرد إله قومي من ناحية، ودخول كثير من الشعائر والطقوس الأشورية الكلدانية في العبادة من ناحية أخرى، حتى أصبحت الشمس تتمتع بتقديس حار في بيت المقدس) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٨٩).

يبدو أن مسألة خلو العصر الجاهلي من أية تأثيرات كتابية لها علاقة بتعدد الدراسات التي ترمي إلى إثبات تأثير أهل الكتاب في هذه البيئة، وهذا يعني أن الرسول محمد ﷺ قد تأثر فعلا بهذه البيئة المختلطة ولهذا الغرض، عمل ابن نبي على دحض هذه الدراسات وبيان عدم دقتها عبر عقده لدراسة مقارنة بين الرواية التوراتية والراوية القرآنية للأحداث التي جرت مع النبي يوسف، وهكذا مضى مالك ابن نبي في سبيل إثبات صواب طرحه استعمال منهج علم الأديان المقارن لإثبات أصالة الظاهرة القرآنية والظاهرة المحمدية بعيدا عن التفسيرات التقليدية في هذا المجال.

**٤. أصالة الظاهرة القرآنية عبر دراسة مقارنة بين الرواية التوراتية ورواية القرآن الكريم من خلال قصة يوسف**

عقد مالك ابن نبي مقارنة فريدة بين الأحداث التي سردها لنا القرآن الكريم والأحداث التي روتها لنا الكتب المقدسة، فقام في هذا السياق باستحضار نصوص


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

تتضمن أحداثا مفصلة لما جرى للنبي يوسف (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٢٥١). ليخلص في نهاية المطاف إلى نتيجة هامة تقول، أن الرواية القرآنية حول النبي يوسف هي رواية روحانية تاريخية، أما الرواية التوراتية فهي عبارة عن رواية تاريخية محضة (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٢٥٢). وكان قصد ابن نبي من إيضاح هدا الفرق بين الروايتين، الإجابة عن إشكالية راودت الرجل في أغلب فصول كتابه، وهي البرهنة على خلو العصر الجاهلي من أي تأثير لأتباع الديانات السماوية، وقد تمكن ابن نبي من الدفاع عن وجهة نظره هذه عبر إثبات الطابع التاريخي الذي أورده لنا التوراة فيما يخص قصة النبي يوسف، حيث يؤكد هدا المعطى الهام خلو بيئة العصر الجاهلي من أي تأثير لأصحاب الديانات السماوية (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٣٥٧). فقصة يوسف حسب ابن نبي ليست نسخة مكررة لما ورد في الرواية التوراتية، فلمسات القرآن الكريم واضحة في الأحداث التي جرت مع سيدنا يوسف سواء على الصعيد المادي أو الصعيد الروحي، فهده القصة لم تكون موجودة في البيئة الجاهلية، وبالتالي إذا كان الرسول محمد ﷺ على علم مسبق بتعاليم الأديان السماوية في العصر الجاهلي ومنتشرة فيه على كل الأصعدة، لكان من الواجب على الرسول محمد ﷺ أن يكيف موضوع تعلمه وفق التعبير القرآني، وهذا لا يمكن أن يتم دون مشاركة فعالة للقدرات الشعورية للنبي محمد ﷺ (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٢٦٥). وعليه فإن أوجه الشبه الملحوظة في الرواية القرآنية والرواية التوراتية لا تعزى للتأثير اليهودي أو المسيحي في البيئة الجاهلية، ولا إلى علم محمد الشخصي.

**٥. الظاهرة القرآنية والظاهرة المحمدية**

أرسى ابن نبي في هذه النقطة منطلقات متسلسلة تمكنه من تثبيت دفاعه عن استقلال الظاهرة المحمدية وأصالتها عن باقي الظواهر، عبر استحضار شواهد مثبتة عن النبي محمد ﷺ، فأكد في هذا السياق بتعرض النبي محمد ﷺ قبل بعثته لحوادث غامضة حالت دون إقدامه على الشهوات والنزوات (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١١٣). ليرسي بعدها استنتاجا يقول بأن محمد ﷺ قبل البعثة لم تكن لديه نية مسبقة لتحمل الرسالة ولم يكن يواجه أية مشكلة ميتافيزيقية أثناء عزلته أو زواجه من خديجة (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١١٩). مؤكدا في الآن ذاته، أن الاستهلال العام للقرآن جاء عن علم سابق خارق للإرادة، فحينما كان يساور النبي شك كان القرآن يتدخل، وهذا يبرهن على عدم تدخل النبي محمد ﷺ في القرآن، ويؤشر كذلك على استقلال الظاهرة القرآنية عن الذات المحمدية. (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٢٨١)

لم يكتف ابن نبي بهذه الدلائل بل ساق أيضا دليلا آخر، وهو طبيعة العمل الإنساني مع الوحي، فالرسول حفظ ما كان يلقى إليه من محكم التنزيل بشكل تلقائي دون تكرار ولم ينس آية من آياته وهذا مخالف لما هو سائد في طبيعة البشر، كما ساق أيضا حادثة الإفك حيث تأنى الرسول محمد ﷺ في اتخاذ حكم تجاه عائشة إلى غاية


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

نزول الوحي والفصل في هذه القضية، وقد استدل ابن نبي في هذه المسألة بقوله تعالى: (وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين) القصص ٨٦. معلقا عليها بالصيغة التالي: (فهل معنى هذا إلا أنه لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور في دعوة من أجله هو، لا قبل عزلته ولا خلالها، ومع ذلك فهذا هو المعنى النفسي للآية، الذي غابت أهميته التاريخية عن الأستاذ "درمنجهام"، مع أنه لم يرتب مطلقاً في صحة القرآن التاريخية) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١١٩).

نافح ابن نبي في هذا المحور في الدفاع عن استقلالية القرآن عن الذات المحمدية وعلينا أن نفهم هنا أن هذا المحور متكامل مع المحاور السابقة ومكملة لها، فظاهرة النبوة في جزء منها مرتبطة بإشكالية المذهب الغيبي والمادي، وهذا الطرح العملي عززه من خلال القيام بدراسة مقارنه بين حالة النبي إرميا وحالة الرسول محمد ﷺ، فكلاهما رفضا في البداية تحمل أعباء النبوة، وبالنظر إلى التشابه الكبير في سيرة كل من النبي محمد ﷺ والنبي إرميا، أي العهد القديم والعهد الجديد، رغم التباعد على المستوى الزماني، استقى ابن نبي نصوصا واردة في سفر إرميا وسيرة الرسول تعزز دراسته، ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر تشابها في حالة الاضطهاد والظلم الذي تعرضا له من قبل قومهما فقد أورد ابن نبي نصا على لسان إرميا ورد في سفره: (لقد صرت محور سخرية طيلة النهار، فالجميع يهزؤون بي، لأني كلما تكلمت وجدتني مضطراً لأن أصرخ، وأعلن الجبروت والخراب؛ لقد صارت كلمة الله بالنسبة لي مصدر عار واستهزاء مستمر، فإذا قلت: لم أعد أذكره، أو أتكلم باسمه، وجدت في قلبي كالنار المضطرمة المستكنة في عظامي، فأحاول أن أطفئها، ولكني لا أستطيع) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ٩٥).

والأمر ذاته تقريبا نجده قد ورد في سيرة الرسول محمد ﷺ حينما اشتد عليه الحصار وكثر الأعداء يقول ابن نبي في هذا الصدد: (ورأى النبي الله أن الناس لا يقبلون على دعوته، فقرر أن يحملها إلى مكان بعيد، إلى الطائف، لكنه لاقى هوانا أقسى، ومعاملة شريرة في سبيل مهمته، فلقد رماه الناس بالحجارة، وبثوا الأشواك في طريقه، وأغروا به الأطفال والعبيد يسخرون ويستهزئون، فلجأ إلى حائط يحتمي به، دامي القلب من غباوة القوم وشراستهم، ولكن نفسه كانت لا تعرف الحقد: لقد كان كل ما فعله أن رفع عينيه إلى السماء، وهو يتمتم بدعاء كله حرارة وخشوع، لا يمكن للنفس الإنسانية أن تصرح بها لحظة كرب كهذه :(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكن عافيتك أوسع لي؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت من أجله الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تحل بي غضبك، أو تنزل عليّ


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك) (ابن نبي، ١٩٨٧م: ١٣٠).

وقد كان قصد مالك ابن نبي من وراء استحضاره لهذه الوقائع، الرد على مدارس الاستشراق والمدارس الغربية الحديثة التي تزعم أن الظاهرة النبوية لها أسباب نفسية، وتارة أسباب شخصية، وتارة أخرى أسباب تاريخية، مبعدة بالمطلق أصالة هذه الظاهرة واستقلالها عن باقي الظواهر.

**خاتمة**

استهدف هذا البحث من خلال محاوره الظاهرة القرآنية من زاوية علم الأديان المقارن، فبحث في البنيات المعتمدة من قبل مالك ابن نبي لإبراز خصوصية هذه الظاهرة عن باقي الظواهر المنتشرة، وقد كشف ابن نبي الصورة أمام القارئ بشكل واضح، رغبة منه في تشكيل صورة ذاتية للإنسان المسلم وفق أفق علمي، متجاوزا الأنماط التقليدية في تفسير القرآن وبيان خصوصياته، ومبتعدا في الآن ذاته عن ضيق التحيّزات الإيديولوجية والفكرية الإستشراقية التي قامت بخلط الظاهرة القرآنية خصوصا والظاهرة الدينية عموما في قالب واحد مع باقي الظواهر، في محاولة منها لتشكيل صورة نمطية حول القرآن الكريم والأنبياء والكتب المقدسة ، فقام ابن نبي لإظهار عدم صواب هذا الإتجاه باستدعاء مقاربة قائمة على الزج بنصوص العهد القديم وأنبيائها "إرميا ويوسف نموذجا"، ومقارنتها ببعض النصوص الواردة في القرآن الكريم وبعض الأحداث التي تعرض لها الرسول محمد ﷺ قبل بعثته وبعدها، مع استدعاءه للمقاربة التاريخية والنفسية والتحليلية، ليعيد قراءة الظاهرة القرآنية من منظور معرفي علمي يسعى إلى تنقيتها من شوائب اتصالها بالعهد القديم أو العصر الجاهلي أو من بعض موروثات أهل الكتاب أو من تدخل ذاتية الرسل في تكوين النصوص المقدسة، مبرزا في الوقت عينه أصالة الظاهرة الدينية عموما وخصوصية الظاهرة القرآنية وأهمية الظاهرتين في تكوين العقل واستقامة الحياة وتأسيس القيم، وقد تمكن الرجل من حل هذه الإشكالات من خلال منهجه الفريد في تحليل الظاهرة القرآنية من تفنيد هذه الشبهات.


ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391

**قائمة المصادر والمراجع**

ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، ترجمة شاهين، عبد الصبور، دار الفكر، الطبعة الرابعة، دمشق، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.



ISSN: 2537-0383 eISSN : 2537-0391